

اتجاهات البحث البلاغي عند القدامى في التفسير



أ: قرل عبد المالك

جامعة الوادي

résumé:

Savoir le pouvoir du coran, comprendre ses ordres et découvrir ses secrets ne sont pas basés seulement sur la compréhension de la rhétorique et de l'éloquence. Cela prouve clairement que les interprètes et les hôtes de l'étude coranique avaient la grande part dans l'apparition de la rhétorique et son développement, y compris leurs recherches pour atteindre à la vérité des miracles, comme nous trouvons des communautés de langues multiples et des auteurs qui démontrent à travers leurs doctrines des observations rhétoriques bien importantes et une réponse claire surlignée la rhétorique, l'éloquence, le style et le pouvoir miraculeux. Ces divers environnements font le résultat de cristalliser la rhétorique dans des directions différentes.

تمهيد :

إن معرفة ألفاظ القرآن ، وفهم معانيه ، وإدراك أغراضه و أبعاده هو الهدف الذي يرمي إليه المفسر، ولا يمكنه أن يقف على شيء من ذلك إلا إذا كان ذا قدم راسخة في علوم اللغة بصفة عامة ، و علوم البلاغة بصفة خاصة ، وقد كان التأمل في أسلوب القرآن و تفهم أسرار البيانية دافعا لظهور الدراسات القرآنية و مدعاة للبحوث البلاغية التي ألفت بغزارة منذ نهاية القرن الثاني الهجري في كتب تناولت القرآن و ما فيه من معان و مجاز ونظم و إعجاز ، و أمدتها بفيض زاخر من الملاحظات البينانية التي أثرت البحوث البلاغية على مدى القرون . فالوقوف على إعجاز القرآن وإدراك نظمه و اجتلاء أسرار لا يقوم إلا على تفهم البلاغة و معرفة الفصاحة ، و بهذا يصبح جليا أن المفسرين و أصحاب الدراسات القرآنية كان لهم نصيب كبير في نشأة البلاغة و العمل على تطويرها ، بما قدموه من أبحاث بلاغية للتوصل بها إلى حقيقة الإعجاز إذ نجد طوائف متعددة من لغويين و متكلمين و أدباء و نقاد و مفسرين تظاهرت مذاهبهم على إبراز ملاحظات بلاغية مفيدة ، ووضع إجابة واضحة المعالم عن الفصاحة و البلاغة و البيان و الأسلوب و الإعجاز ، و كان نتيجة لهذه البيئات المختلفة و تلك الطوائف المتعددة أن بلورت البلاغة في اتجاهات مختلفة منها :

1. اتجاه المتكلمين؛

قام المعتزلة في مطالع القرن الثاني للهجرة عندما بدأت الأفكار الجديدة تتسلل إلى العقول، وأقبل الناس على الدين الجديد يدرسونه، وينظرون إليه على ضوء تراثهم القديم من ديانات، وفلسفات وعقائد، فنشأت جماعة من علماء مسلمين تسلحوا بمناهج عقلية، عرفوا بقوة البيان وحسن الرأي وقوة الحجة وعلى رأسهم المعتزلة وكبيرهم واصل بن عطاء المتوفى (سنة 131 هـ) صاحب بيان رائع وقدم راسخة في البلاغة، وكان يدافع عن القرآن دفاعاً منهجياً عقلياً خلطه بالفلسفة وخلف واصل في تفسير القرآن على مذهبه كتاباً سماه "معاني القرآن". (1)

وعلى منهج واصل بن عطاء سار صاحبه عمرو بن عبيد المتوفى (سنة 144 هـ) كان رجلاً صالحاً زاهداً يأتي من بعدهما النظام المتوفى سنة (221 هـ) والذي درس الاعتزال، واتصل بالثقافة الهندية واليونانية، وتعلم المسيحية، ولاهوتيتها، وكان لا يميل في علمه إلى التجريب، والقياس، كما أتم بالثقافة العربية، فحفظ القرآن ونظر فيه وفي تفسيره على ضوء مذهبه التجريبي القياسي أما نظريته في بيان القرآن بوجه عام فقد اختلف عن نظرة كثير من أصحابه من المعتزلة فهو يرى أن القرآن في نظمه وتأليفه خارج عن الإعجاز. (2)

ويعتبر بشر بن المعتمر المتوفى سنة (210 هـ) من متكلمي المعتزلة وهو مؤسس فرع الاعتزال في بغداد، اتصل بالفضل بن يحيى البرمكي وكان مقرباً إليه وهو شخصية قوية كانت له صحيفة عرفت باسمه تعرض فيها لقضايا أساسية في البلاغة، أوردها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"

ومهما يكن فظهور المتكلمين بفرقهم المختلفة وما ثار بينهم من جدل حول كثير من القضايا الإسلامية، كلها متصل بالعقيدة بصورة خاصة، فقد اعتمدوا على استخدام الألفاظ بطرق تخدم غاياته في الإقناع والمجادلة، وكان لهم أكبر الأثر في بلورة المفاهيم البلاغية الأولى، وكان القرآن مرجعهم الأول يستمدون منه الأدلة. وأدى هذا الجدل بهم إلى التفنن اللفظي، والبحث في القضايا البلاغية. (3)

هذه الطائفة تسلحت بالفلسفة والمنطق، لتناضل بهما عن الدين الإسلامي ولكن الفلسفة والمنطق قد انعكس أثرهما على كل ما يتناولونه، فإذا عرضوا لأموار أدبية فنية، كأن ينظروا في أي القرآن مثلاً، لا يستطيعون أن يخلصوا أنفسهم من النظرة العقلية، حيث تجب النظرة الأدبية، وقيسون بمقياس الصحة والخطأ والخير والشر، بدلاً من قياسهم بمقياس الجمال والقبح الذي يجب أن يعتبر وحدة مقياس الأدب والفن. (4)

و نستطيع أن نلخص طريقتهم في البحث عن طريق استعمال الفلسفة المنطقية في تحديد الموضوعات و تقسيمها و الاستعانة بالألفاظ و المصطلحات الفلسفية و المنطقية في تناول الموضوعات البلاغية ، وبذلك بعدت أشواطاً عن مرمى البلاغة و أهدافها التي تغرس في المتعلم الإحساس الفني

كما عمدت هذه المدرسة إلى التقليل من الشواهد و الأمثلة و الآيات القرآنية ، و شاعت هذه المدرسة في المناطق الشرقية من الدولة الإسلامية ، حيث يكثر خليط من الفرس و الترك و التتر.(5)

و لابد لمن يستعرض تاريخ دراسات البلاغة العربية من الوقوف عند أعلامها الأفاضل ، و على رأسهم الجاحظ المتوفى سنة (255 هـ) الذي تتلمذ في اللغة و الأدب على أبي عبيدة الأصمعي و أبي زيد الأنصاري ، وفي النحو على الأخفش و في علم الكلام على أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام زعيم المعتزلة ببغداد و اتصل بالثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ، و مشافهته لبعض مترجميها من أمثال حنين بن إسحاق كما أخذ الثقافة الفارسية عن طريق كتب بن المقفع و توسع في الثقافات كلها بما يقرأ من الكتب التي تصل إلى يديه.(6)

و رأى الجاحظ أن بيان القرآن و نظمه و تأليفه يحتاج إلى كتاب مستقل يودع فيه رأيه في إعجاز القرآن من هذه الناحية ، فألف كتاب "نظم القرآن" ، و كتاب "البيان و التبیین" ، و أثبت فيه آراءه في بيان القرآن بشكل يوضح الحجة في إعجازه و لا شك أنه قد كان لأراء الجاحظ في هذين الكتابين أثرهما في توضيح الدراسات الأدبية و النقدية بعد ذلك(7) و قام الجدل و احتدم الخصام حول بيان القرآن من زاوية المجاز بين المعتزلة و أهل السنة و يمثل الفريق الأول في هذا العصر الجاحظ و يمثل الفريق الثاني ابن قتيبة المتوفى سنة (286 هـ) و خرج الجدل من القرآن إلى الأدب العربي بشعره و نثره و تناول أساليب الكلام فنون التعبير المختلفة.(8)

2. اتجاهات اللغويين و النحاة:

مما لا شك فيه أن البلاغة قد أفادت من الدراسات اللغوية أيما فائدة ، سواء من حيث حروفها ، أو في الكلمات مجتمعة من حيث تعادلها في الخفة أو الثقل ، وجاء دور علماء اللغة الذين كان لهم أثر في مدّ تيار البلاغة بينابيع من دراستهم في اللغة ، و بحثهم في الألفاظ ، و بيان ما يعتريها من فصاحة أو ابتذال ، مما أفاد الدراسات البلاغية ، ومعنى هذا أن من بين من شاركوا مشاركة فعالة في بناء البلاغة طوائف اللغويين و النحاة و الرواة ، فهؤلاء كانوا من أكبر العاملين في ميدان البلاغة العربية و من أولئك العلماء:

-سبويه المتوفى سنة (170 هـ): في مؤلفه " الكتاب " يعرض في كتابه القضايا البلاغية منها الحذف الذي يدخل في فن البلاغة مثل التخفيف و الإيجاز و السعة و تناول أيضاً التقديم

و التأخير في صدر كتابه ، ولم يقتصر على ذكر أنواع البيان و المعاني بل تجاوز ذلك إلى بعض ألوان البديع في عرف المتأخرين و أول هذه الألوان تأكيد المدح بما يشبه الذم.

- أبو عبيدة عمر بن المثنى التيمي المتوفى سنة (209 هـ) : في كتابه " مجاز القرآن " و قد سار أبو عبيدة في معالجة مجاز القرآن على ترتيب السور ، و لكن لم يستقص ما اشتملت عليه كل سورة من مجاز و إنما نراه يورد الاستعمالات الغريبة فيها ، أي أنه ركز على غريب القرآن ، أو مجاز القرآن بمعنى الأشياء الغريبة التي خرجت من مألوف الاستعمال ، ولكنه أظهر بعض المظاهر البلاغية ، كالإطناب بزيادة الحروف للتأكيد ، و الإجمال ، و التقديم و التأخير ، و كاستعمال الكناية استعمال اللغويين و النحاة بمعنى الضمير.(9)

- الفراء يحيى بن زياد المتوفى سنة (207 هـ) : في كتابه " معاني القرآن " الذي يعتبر دراسة مكملية لكتاب مجاز القرآن لأنه يبحث في التراكيب و الإعراب ، و المجاز و الغريب و كلتا الدراستين متعلقة بالأسلوب ، و قد ألف هذا الكتاب حوالي سنة 204 هـ. الذي تناول فيه قضايا بلاغية منها الكناية و المجاز بمعناه اللغوي و الاستعارة و حتى النظم.

- ابن قتيبة محمد بن مسلم المتوفى سنة (286 هـ) في كتابه " مشكل القرآن " ، كانت ثقافته العربية تقوم على القرآن الكريم و الحديث و اللغة و النحو و الأدب شعره و نثره ، و تخرج من هذا على أتم عصر و من أساتذتها الأصمعي أبي حاتم ، أبو عبيدة ، ابن الأعرابي ، أبو عمر الشيباني و أبو زيد ، و امتزجت ثقافته العربية بالثقافات الأخرى يونانية و فارسية و هندية في ذهنه. كما كان علما من أعلام السنة ، و إماما من أئمتهم بل هو لأهل السنة بمنزلة الجاحظ للمعتزلة يتحدث بلسانهم كما كان الجاحظ يتحدث بلسان المعتزلة.(10) و قد تناول ابن قتيبة مسائل بلاغية في صدر كتابه " مشكل القرآن " يخبرنا أن القرآن نزل بلغة العرب ، و المجازات في الكلام و معناها ، طرق القول و مأخذه ، التقديم و التأخير و الحذف و التكرار و الإظهار و التعريض و الإفصاح..... إلخ.

فهؤلاء العلماء الذين سبق ذكرهم نجد نحاة كثر ألفوا في البلاغة أو فيما يتصل بها فمنهم: الفضل الضبي المتوفى سنة(168 هـ) له كتاب " معاني القرآن " و كتاب " الألفاظ " .

يونس بن حبيب المتوفى سنة(183 هـ) له كتاب " معاني القرآن " .

مؤرج السدوسي المتوفى سنة(195 هـ) له كتاب " غريب القرآن " .

الكسائي علي بن حمزة المتوفى سنة (197 هـ) له كتاب " معاني القرآن " .

قطرب المتوفى سنة (206 هـ) له كتاب " معاني القرآن " .

الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة المتوفى سنة(221 هـ) له كتاب " تفسير معاني القرآن " .

أبو عبيدة القاسم عبد السلام المتوفى سنة(224 هـ) له كتاب " معاني القرآن " و " غريب القرآن "

هؤلاء العلماء النحاة الذين ظهر معظمهم في العصر العباسي الأول لم يحدوا نشاطهم العلمي في مجال النحو وإنما نراهم يتجاوزونه إلى مجالات أخرى متصلة بالأدب والبلاغة. (11) اتجاه الفقهاء:

كان للفقهاء المفسرين أثر في البلاغة ، فقد اعتمدوا في استنباط الأحكام الدينية و أصول التشريع الإسلام على نصوص من الكتاب والسنة ، وهذا بدوره أدى بهم إلى النظر في أساليب القرآن البيانية والتأمل في ألفاظه ودلالاتها وفي طرائق التعبير ومراميها . وكان الإمام الشافعي محمد بن إدريس المتوفى سنة (304 هـ) أول من كتب أصول الفقه وله في كتاب " الأم " الذي استهله بمقدمة ذكر فيها حقيقة البيان العربي ، وقسمه إلى بيان القرآن و بيان السنة و البيان بالرأي. ثم جاء الفقهاء من بعده فتوسعوا في البحوث اللفظية و اعتبروا الإلمام بعلوم البلاغة مع سائر العلوم العربية من الأدوات المعينة لهم على الاضطلاع ببحوثهم الفقهية والأصولية. (12)

3. اتجاه علماء الإعجاز:

إن الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن قد انطلقت من فكرة إعجاز القرآن ولا يعرف بالضبط متى بدأ البحث في هذا الموضوع ، قد يكون بدأ في القرن الثاني الهجري وهو العصر الذي بدأ فيه المفسرون الأولون يدنون ما انتهى إليهم من تفسير عن طريق الرواية الشفوية. وفي بداية القرن الثالث هجري احتدم الجدل حول مسألة وجوه إعجاز القرآن وأول ما فتح الباب هو قول المعتزلة بفرضية الصرفية أي أن إعجاز القرآن لا يكمن في التعبير في ذاته وإنما في أشياء أخرى وأشهر من قال بهذه الفكرة النظام المتوفى سنة (221 هـ). (13) ولقد كان الإعجاز خليقا أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف على وجوه القرآنية ، وعن أسلوب القرآن الفذ في التصوير والتعبير ، وبذل أولئك العلماء جهودا كبيرة ، وقاموا بمحاولات كثيرة لإبراز البلاغة القرآنية وعملت فيها وأضاف إليها ثم بنت عليها ، فأقامت علوما وأخرجت أخرى إلى الحياة فبدأت في الدراسات القرآنية دراسات الإعجاز وعلومه ، وأفردت كتب خاصة مستقلة بها ، تبحث عن التفسير وقام علماء أجلاء بوضع قواعد وأصول لتوضيح الجوانب البلاغية في أسلوب القرآن وتبرز الفرق بينه وبين أساليب العرب وفنون قولهم. (14)

ولعل الجاحظ المتوفى سنة (255 هـ) كما سبق ، كان أول من تكلم على بعض المباحث المتعلقة بالإعجاز في كتابه " نظم القرآن " وتطرق فيه إلى الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، وألف في الإعجاز ابن الأخشيد وأبو علي الحسن بن علي بن نصر ثم جاء الواسطي المتوفى سنة (203 هـ) الذي لا يبعد أن يكون قد استفاد من كتاب الجاحظ وبنى عليه حينما صنف كتابه " إعجاز القرآن " وقد عاصر قطرب واهتم به عبد القادر الجرجاني بالشرح مرتين نظرا لأهميته ثم يأتي بعد الواسطي الرماني المتوفى سنة (374 هـ) بكتابه " في الإعجاز " ولم يصدر عنه رأي مبتكر حيث تدرج في كتابه من قضية الإعجاز عامة إلى الإعجاز البلاغي خاصة و يليه محمد بن إبراهيم الخطابي المتوفى سنة (377 هـ)

في كتابه " بيان إعجاز القرآن " و كتابه هذا مشهور بين كتّاب الإعجاز لأنه يمثل رأي أهل الحديث في الإعجاز كما مثل الرماني رأي المعتزلة و كما مثل الباقلاني رأي الأشعرية. (15) ثم يضع القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة (403 هـ) كتابه " إعجاز القرآن " الذي جمع فيه كثير من المباحث البلاغية القرآنية و لكنه على سعته و شموليته لا يصور إلا الفكرة السائدة عن الإعجاز في عصره ممزوجة بالمسائل الكلامية الكثيرة. (16) و يأتي على رأسهم الإمام عبد القادر الجرجاني المتوفى سنة (471 هـ) الذي يعتبر فتحاً جديداً و مرحلة جديدة هامة في تاريخ الدراسات البلاغية في كتابيه " دلائل الإعجاز في المعاني " و " أسرار البلاغة " الذي عمل على هدم النظريتين السائدتين آنذاك ، نظرية القائلين بأن بلاغة الكلام في اللفظ و نظرية القائلين بأن البلاغة في المعنى ليقوم على أنقاضها صرح نظرية جديدة و هي نظرية النظم. (17)

و هكذا نستطيع أن نتبين بوضوح مدى ما أثارته قضية الإعجاز القرآني من آراء بلاغية ، و كتب صنفت لبيان وجوه الإعجاز ، و اعتمدت أساساً على علوم البلاغة من معان و بيان و بديع ، فكانت هذه الكتب ، و في أول أمرها سبيلاً إلى نشأة البلاغة ثم تطورت بها حتى استقرت في النهاية بوضع قواعدها و قوانينها و معظم الكتب البلاغية المعتمدة ، من تراثنا الإسلامي و العربي، نجدها تعرض للإعجاز ، إما عن طريق مباشر أو من خلال الحديث عن الفصاحة و البلاغة فكل ما ذكرناه في هذا البحث من مؤلفات تحمل اسم القرآن و إعجازه عنواناً لها ، و في الوقت نفسه تتحدث عن البلاغة إجمالاً و تفصيلاً ، نقداً أو تحليلاً ، و لم تترك قضية بلاغية إلا و عرضت لها أو ذكرت فيها رأياً ، و إن كان عرضها الأول و هدفها الأوضح هو الوصول بنا إلى معرفة إعجاز القرآن .

أما الكتب البلاغية التي تحمل كلمة القرآن أو إعجازه عنواناً لها . مثل : كتاب الصناعتين أو سر الفصاحة أو العمدة ، فإنها لم تخل من إشارات إلى إعجاز القرآن ، و صلته بعلوم البلاغة من معان و بيان ، فكان الإهتمام بقضية الإعجاز القرآني هو السبيل إلى نشأة البلاغة و تطورها و نضجها.

4. اتجاه الأدباء:

ابن المعتز المتوفى سنة (296 هـ) في كتابه " البديع " حيث يضم ألوان البلاغة المختلفة ، لم يفرد له كتاب قائم بذاته قبل كتاب ابن المعتز و إنما كانت أبواب البديع موزعة ، منثورة في كتاب السابقين مثل ابن قتيبة و المبرد و الجاحظ و لم يجمعهما كتاب واحد . أبو هلال العسكري المتوفى سنة (395 هـ) في كتابه " الصناعتين " أي الكتابة و الشعر ، استعان في تأليفه بكل ما سبقه في الكتابة عن هذا الموضوع ، من أمثال ابن سلام ، و الجاحظ و ابن قتيبة ، و ابن معتر ، و قدامة ، و الأمدى ، و القاضي الجرجاني ، استعان بهؤلاء جميعاً ثم قدم لنا خلاصة القول أنها تبسط الكتب التي ألّفت في هذا الفن من قبل .

ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة (466 هـ) في كتابه " سر الفصاحة " ويوضح فيه أن معرفة الفصاحة تنعكس على العلوم الشرعية ، لأن فصاحة القرآن معجزة ، فاللدواعي إلى معرفة الفصاحة قوية والحاجة إليها ماسة وشديدة وبيّن أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها ، ومخارج الحروف ، وما ينتظم منها وما يستكره ، والألفاظ المستعملة والمهملة ثم ينتقل إلى الكلام عن الفصاحة والبلاغة.

وهناك من ألف في وجوه بلاغية متنوعة في القرآن الكريم مثل التأليف في أمثال القرآن حيث ألف فيه القواريري أبو القاسم المتوفى سنة (379 هـ) وابن نضويه ، إبراهيم بن محمد المتوفى سنة (323 هـ) ، وعبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنة (371 هـ) ثم النيسابوري عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة (412 هـ) وأبو الحسن المارودي المتوفى سنة (450 هـ) والبغدادي المتوفى سنة (475 هـ)... وغيرهم⁽¹⁸⁾

ومجمل القول ، فقد ساهم في نشأة البلاغة أئمة وعلماء من اختصاصات ومذاهب وثقافات مختلفة ، من متكلمين وفقهاء ، ومفسرين ولغويين لأن علوم القرآن بصفة عامة وعلوم البلاغة بصفة خاصة لم تكن قد استقلت عن بعضها استقلالاً تاماً ، وكان القرآن هو المثل الجامع الذي تصدر عنه الآراء ، وإليه تسمو الهمم .

الهوامش :

- ¹ محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ، مكتبة الشباب ، ط 1 ، 1982 ، ص 68 .
- ² عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1970 م ، ص 24 .
- ³ عبد القادر حسين ، المختصر في تاريخ البلاغة العربية ، دار الشروق ، بيروت ، ط 1 ، سنة 1402 هـ ، 1982 م ، ص 12 .
- ⁴ المرجع نفسه ، ص 13 .
- ⁵ المرجع نفسه ، ص 13 .
- ⁶ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، ص 52 .
- ⁷ محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 73 .
- ⁸ المرجع نفسه ، ص 74 .
- ⁹ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، ص 37 .
- ¹⁰ عبد القادر حسين ، المختصر في تاريخ البلاغة العربية ، ص 28 .
- ¹¹ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، ص 43 .
- ¹² المرجع نفسه ، ص 32 - 33 .
- ¹³ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة العربية المصرية ، ط 3 ، ج 3 ، ص 125 .
- ¹⁴ محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 229 .
- ¹⁵ المرجع نفسه ، ص 255 .
- ¹⁶ صبحي صالح ، مباحث في علوم القرآن ، دار الملايين ، بيروت ، ط 8 ، 1989 ، ص 316 .
- ¹⁷ أحمد شامية ، خصائص العربية والإعجاز القرآني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1995 م ، ص 117 .
- ¹⁸ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : يوسف المرعشلي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 2 ، 1994 ، ص 42 .